دائرية الزمن و دلالته في روايات إبراهيم الكوني

الدكتورة: وردة معلم
قسم اللغة و الأدب العربي
جامعة 08 ماي 1945- قالمة

الملخـــص:

يمثل الزمن الدائري مستوى من مستويات الكتابة عند الروائـــي إبـــراهيم الكوني، فهو يعكس اهتمامه المثير والمدهش بالفضاء الصحراوي الممتد من السودان شرقا إلى الجزائر غربا، و من تونس شمالا إلـــى مـــالي والنيجـــر وبوركينافاسو جنوبا، و ترتبط فكرة دائرية الزمن التي تشكل جوهرا أساســـيا في الروايات الكونية بالواقع الفيزيائي لهذا الفضاء السحري الغـــامض، كمـــا ترتبط بالتاريخ الذهني و النفسي والاجتماعي لقبائل الطوارق، مـــن دون أن أنسى الأسطورة التي يبني على أنقاضها هذا الروائي أفكاره و رؤاه، و قـــد انعكس كل ذلك على طبيعة الحدث الروائي الذي يتناول تناقضـــات الحيـــاة الصحراوية بكل تفاصيلها من خلال هذه الدائرية المؤثرة تأثيرا كبيـــرا جـــدا على البنية السردية لأعماله، و من هنا يأتي توقفي عند هذا الموضوع الـــذي اعتبره محوريا لقراءة أعمال إبراهيم الكوني.

1- تعريــف الزمــن:

أ- لغــة:

تحيل كلمة الزمن في معاجم اللغة العربية على معان كثيرة، فقد جاء في القاموس المحيط، « الزمن اسم لقليل من الوقت وكثيره، والجمع أزمان وأزمنة وأزمن .. »[1]

و أما في المعجم الوسيط فقد ورد بمعنى « أزمن بالمكان: أقام به زمنا، والشيء طال عليه الزمن، يقال، مرض مزمن وعلة مزمنة، والزمان: الوقت قليله و كثيره، ويقال السنة أربعة أزمنة، أقسام وفصول ...والمتزامنتان كحركتان دوريتان تتفقان في زمن الذبذبة و الطور....»[2].

كما جاء في معجم مقاييس اللغة بالمعنى الآتي: « الزمن هو أصل يدل على وقت من الوقت من ذلك، والزمان هو الحين قليله و كثيــره، ويقــال زمــان وزمن، والجمع أزمان و أزمنة، قال الشاعر:

وكنت امرأ زمنا بالعراق عنيف المناخ طويل التغن »[3]

وجاء في أساس البلاغة« خلا زمن فزمن، وخرجنا ذات الزمين، و أزمن الشيء، مضى عليه الزمان فهو مزمن. و من المجاز: أزمن عن عطاؤك: أبطأ علي »[4].

و فيما يخص هذه المساءلة المعجمية المتعلقة بمادة (ز م ن) يمكن تسجيل الملحوظات الآتيــة:

تدل كلمة زمن على: الوقت و الدهر والمرض والعاهة، و هي أهم المدلولات التي اتفقت عليها المعاجم العربية القديمة و الحديثة.

ب- اصطلاحــا:

ينهض الزمن بدور هام في حياتنا لذا كانت عناية الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفسانيين والأدباء والفولكلوريين به كبيرة وعظيمة، فلقد أدرك

كل أولئك الدارسون أن الزمن إنما يعني الوجود بكل ما يحتويه منذ بدء الخليقة أين كان يسود الظلام إلى مرحلة تشكل العقل البشري أين حل الضياء مكان الظلمة، فبين المرحلتين: هناك الزمن الحاضر والزمن الماضي، وهناك الإنسان الذي يتطلع إلى المستقبل، وفق خطية زمنية تخضع كلها لقوى الطبيعة ومظاهرها المختلفة، وعندنا نحن المسلمين نقول إنها تخضع لحكمة أراد الله لنا أن نعيش وفقها.

وإذا أردنا أن نضع سؤالا عن تاريخ الزمن، لقلنا إن تاريخه مرتبط بتاريخ ظهور الإنسان، هذا الإنسان الذي تحسس ذاته، والأشياء من حوله، فأقام معها تصالحا قوامه الزمن، الذي توصل إلى قياسه وفق دورات الطبيعة، فهي التي ساعدته على وعي ذاته وإدراكها، وهي التي نبهته إلى الزمن الكرونولوجي، الذي غدا في مرحلته الأولى موصولا بالزمن الأسطوري، ذلك الزمن الذي رأى من خلاله الإنسان الأول العالم، وهو يخضع لقوى الطبيعة المختلفة، فكانت الأساطير و الملاحم أولى المراحل الزمنية، الموصوفة بالعجائبية والغرائبية. كان الزمن الأسطوري زمن البدايات، وزمن مغامرة عقل الإنسان الأول، هو الزمن الذي مهد للتاريخ الإنساني أن يستمر فيسجل ويدون، ذلك أنه لولا الزمن الأسطوري لما وجد الزمن التاريخي أو الزمن الخارجي، لأن الزمن بمعناه الداخلي والخارجي هو « روح الوجود الحقة ونسيجها الداخلي، فهو ماثل فينا بحركة لامرئية حين يكون ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا، فهذه أزمنة يعيشها الإنسان وتشكـــــل وجوده. بالإضافة إلى أن الزمن الخارجي أزلي لا نهائي يعمل عمله في الكون والمخلوقات ويمارس فعله على من حوله »(5).

فمنذ فترة مبكرة جدا من التاريخ الإنساني، أدركت الشعوب والحضارات القديمة حقيقة الزمن فراحت تصوره بمختلف مظاهره التي

مكنتها من قياسه، ومن ثمة إدراك مسألة قصره وطوله، والحقيقة أن هذه الشعوب لم تختلف في عد الزمن مسألة إنسانية بالدرجة الأولى، ومعنـــاه لا وجود للإنسان بدون الزمن ولا وجود للزمن بدون الإنسان، فوجود أحدهما مرتهن بوجود الآخر.

قد تفتقر لغات بعض الشعوب إلى الصيغ الزمنية، كما قد تختلف النظرة إلى الزمن والطريقة التي يقسم وفقها، إما باستخدام التقاويم الشمسية أو القمرية أو استخدام الساعات الرملية التي وجدت عند اليونانيين القدامى..... ولكن من المؤكد أن شعوب العالم القديم اتفقت على عد الزمن دائريا.. « وهذا التصور ربما ناجم أيضا، أو مستمد من الكون نفسه الذي هو بالتالي دائري، أو كما يقول **comford** من دوران السنة أي القرص »[6].

والذي لا شك فيه، أن هذا التصور، إنما نتج عن الأهمية التي اكتساها الزمن في حياة الإنسان، فتواتره على شكل فترات منتظمة، ولد لديه فكرة التناغم المتكرر التي، « أصبحت فيما بعد بعدا أساسيا وجوهريا لتقييم الزمن وقياسه، فتاريخ هذه الفكرة يعود إلى الأسطورة المتعلقة بالقمر أور **(ur)** في إحدى الحضارات القديمة التي كانت تعبد القمر، لان المراحل القمرية (من هلال وبدر وقمر) مثال واف وجلي للتكرار المستمر لهذه الظاهرة من جانب ومن جانب آخر، فهو أي القمر يمدنا بوحدة قياس للزمن من السنة الشمسية »[7].

وقد حاول أرسطو التأكيد على حقيقة دورانية الزمن، وذلك عندما عرف الزمن بقوله إنـــــه « عدد أو سلسلة موجودة في تصورنا نحن لأجزاء الحركة سابقة وأخرى لاحقة، أي لبعـــــد أو قبـــل »[8].

كما نلحظ أن تصور أرسطو للزمن قائم أساسا على النزعة الذاتية التي تؤكد انه وثيق الصلة بالإنسان، فوجود الإنسان شرط ضروري لوجود فكرة

الزمن، الذي هو خاصية إنسانية حتى وان اختلف في طريقة فهمه من شعب لآخر.

و استمر الجدل حول فكرة الزمن، ففي القرون الوسطي كان الخلاف قد تمحور حول اتجاه الزمن أهو خطي أم دائري، « ونتيجة ذلك وقع علماء وباحثو علم الفلك والتنجيم تحت تأثير المفهوم الدائري للزمن بينما كان أتباع المفهوم الخطي هم طبقة المال ورجال الاقتصاد الذين قادهم الأمر أخيرا لأن يطلقوا على الزمن مال »[9].

وأما في القرن التاسع عشر الذي عرف اختراع الساعة البندولية فقد شهد تغير النظرة للزمن، وقد أحدث هذا الاختراع انقلابـــا عظيما في مفهوم الزمن.

ومع بداية العصر الحديث توسع النظر إلى الزمن، فلم يعد مرتبطا بالتصورات الدينية ولا بقضية الموت و لا الطبيعة بل توسع المجال أكثر للاهتمام به، وامتدت مجالاته لتشمل جميع الضروب المعرفية، من فلسفة وعلم النفس والرياضيات والفيزياء والأدب فتعددت بذلك دلالاته و اختلفت معانيه، و كل ذلك مرتبط « بحسب ما تفهمه الشعوب منه و ما تراه من توظيفات ممكنة له، و عن ذلك نشأت دلالاته و اختلفت و تنوعت»[10].

2- تمظهـــرات دائرية الزمن في روايات إبراهيم الكوني:

تقوم فكرة دائرية الزمن على الديمومة التي تعد أهم ثيمة من ثيمات الكتابة لدى إبراهيم الكوني و هي مستمدة من تصور الشعوب القديمة للزمن فقد عدته متكررا، أي أنه يقوم على فكرة التتالي و الدوران التي وجدت لها أساسا صلبا فـــي روايات هذا الكاتب الذي يبنـــي بدايات أحداث رواياتـــه

من أحداث نهاياتها فاستحال بعد ذلك الزمن الدائري محور مشروعه الروائي، محورا تلتقي عنده كل خصائص الكتابة لديه.

إن المتمعن في كتابة " إبراهيم الكوني" الروائية يجد أن الصحراء تشكل الموضوع الرئيسي فيها فهو يعتمد على تراثها اعتمادا مطلقا جعل الرواية عنده تعاش، و الصحراء تروى بكل مظاهرها حتى المتناقضة منها، وقد انعكس الفضاء الصحراوي المثير تارة، و الغامض تارة أخرى، على طبيعة الحدث ذي الطابع التكراري بشكل عام، و على تشكل الزمن بصفة خاصة حيث أخذ هو الآخر صفة الدائرية، وكلاهما ينبع من خصوصية المكان الصحراوي « حيث تنطلق الأحداث و الشخوص كي تعود إليه في زمن دائري، يتكون من مستويات زمنية عدة يتقاطع عبرها نظام الحياة البدوي القائم على الترحال الدائم، ووقائع الصراع القبـــــلي و أحداث الغزو الخارجي »[11].

و يصبح الزمن الدائري في هذا العالم جزءا لا يتجزأ من رؤية الكوني، حيث يحاول في مشروعه الروائي الضخم معالجة جدل الحياة و تناقضاتها المستمرة من خلال هذه الدائرية المنعكسة و المؤثرة تأثيرا كبيرا جدا على البنية السردية لأعماله.

لقد طعم الكوني هذه الدائرية المرتحلة دوما و الحاملة هم الإنسان اليومي بتجارب مستقاة من صلب الواقع الذي تحياه شخصياته الروائية، فتجربة السحرة و الكهـــان و رياح القــبلي الحارقة، و الشمس الحارة، والقمر المنير، و الودان المقدس، و أزهار الرتم الخالدة، و شعائر و طقوس الــولادة، و ميلاد المهري، و مواسم الحل و الترحال، وقوافل التجار العائدة من تمبكتو و كانو، وغيرها، كلها تجارب تؤكد على وجود جدل عنيف تعيشه الشخصية الكُونية، طرفاه الولادة و الموت، لان الزمن عند الكوني كما تطلع

عليه رواياته يحاول أن يتقدم بالاتكاء على التجارب السابقة لكنه يفشل ويصر على العودة مرة أخرى إلى نقطة الانطلاق، حيث تكون الحياة دوما قابلة للتجدد و الانبعاث.

و تعيش هذه المفارقة كل الشخصيات دون استثناء، ولعل السؤال الذي نود طرحه في هذا المقام هو لماذا قوض الزمن الكُوني الحياة وحاصرها بهذا الشكل؟. هل يرجع الأمر إلى طبيعة الزمن الدائري، حيث أن البداية فيه تكون نهاية له؟ أم أن طغيانه على الحاضر الروائي جعل من الشخصية تستسلم و تذعن لمصيرها بإرادتها، فتموت موتة العنقاء حيث من رمادها تولد عنقاء أخرى و هكذا؟ وهل أن سطوة الزمن الدائري تؤكد على أن الشخصية عنده تقوم بدور أم هي مجرد وظيفة لا تخرج عن وظيفتي الميلاد و الموت ؟

في الرواية الكُونية يجري الزمان كما لم يجر أبدا، حيث تمر الأيام والأسابيع و الشـــــهور، و الليل و النهار متعاقبان دوما، و الشمس و القمر قبتان من قبب السماء. تندفع تحتهما الحسناوات في ليالي اكتمال القمر بدرا، و يرافقهن الإمزاد بصوته الشجي الذي لم يكف يوما عن عزف مرثية الوجود، و ترقص المهاري على أنغام الصبايا فتتفتح الأعشاب بعد غياب طويل فتظهر حينئذ الطلحة و يزهر الرتم المقدس فيتجدد الحلم، و لا يفوت الشباب الفرصة لاختيار القرينات في ليالي الســـــمر، وهكذا في تكرار متواصل لا يكف الكون الصحراوي عن التوالد، طالما أن كل مظهر من المظاهر السابقة هو نقطة بدء لحياة جديدة لا تلبث أن تنهي حلقاتها الواحدة تلو الأخرى، لأن النذير القديم يقول أنها ستعود و إن هددتها رياح القبلي القاسية أو جرفتها السيول العارمة، أو انقطع الرزق من السماء، فلا بد أن تأتي العلامة، « بعدها جرى الزمان كما جرى من قبل، وكما سيجري من

بعد و تدفقت مياه وفيرة في قيعان الوديان، وقالت الشاعرات أشعارا شجية وعرفت القبيلة الأوبئة أيضا، فمات معمرون، و ولد أبناء كثيرون، و قرأ العرافون النبوءات في عظام القرابين، فتململت القبيلة و تهيأت لتبديل مكان أقامت فيه أكثر مما ينبغي، لأن الحكماء رأوا في الاستقرار خيانة للعهد القديم، و قالوا أن الرجال إذا أقاموا في المكان طويلا صاروا عبيدا للمكان مثل أهل الواحات »[12].

والذي لا شك فيه، أن هذا التصور، إنما نتج عن الأهمية التي اكتساها الزمن في حياة الإنسان الصحراوي، فتواتره على شكل فترات منتظمة قد تثبت على حال واحد طيلة أيام السنة، ولد لديه فكرة التناغم المتكرر التي شكلت جوهرا أساسيا في الروايات الكُونية، بحيث عكست مفهومه للزمن الذي أتى دائريا منسلخا من الواقع الفيزيائي الذي تتميز به الصحراء، وخارجا من رحم الأسطورة.

ولهذا ارتبطت فكرة دائرية الزمن الكُوني بالقداسة النابعة من الطبيعة؛ المسؤول الأول عن التصـــورات والأحاسيس والمشاعـــر والاعتقادات والسلوكات، و بالأخص تلك التي سنها لهم الناموس و حفظها لهم الكتاب الضائع إنهي، فتتواشج الطبيعة و الناموس الذي يمثله العرف الاجتماعي في التحام أبدي بحيث لا نصبح نفرق بين أي من القانونين يسود، و أيهما المنتج الفعلي لهذا العالم السحري الغامض، الذي تستجيب فيه قبائل الصحراء لهذه الدائرية التي يغلف فيها الزمن الحياة، و يطبعها بطابعه الخاص، فلا تهتم بعد ذلك كائنات الصحراء إن هي تنفست صعد القبلي، أو ارتوت من أنفاس الشمال الندية أو حتى توشحت بنسمات الصباح العابرة التي ستترك لفحات الشمس تعبر و تمر لتحـــــرق مرة و مرات و إلى ما لانهاية، من دون أن يكترث الخلق بقسوة الهبة الإلهية «مع حلول العشية وتزحزح القرص

الملتهب عن العرش في قلب السماء مودعا بالعودة في الغد لإتمام مهمته في إحراق ما لم يستطع إحراقه اليوم، يحشـــــــو أسوف ذراعيه في رمل الوادي، و يبدأ في التيمم لإنجاز صلاة العصر »(13).

لم تشل دائرية الزمن حركة الشخصيات، فهي تعيش وتأكل وتسافر وتعشق وتفعل و تنفعل و تتعبد، لكنها محكومة بهذه الدائرية، متواصلة معها، متماهية فيها، ويكشف هذا التماهي عن خصوصية الطبيعة الصحراوية، المنتج الفعلي لكـــــل هذه الأحاسيس، « و قد يكـــــــون إحساسنا بالعودة الدورية التي توحد البداية والنهاية آتيا من الطبيعة – الأيام والفصول والسنين التي تهيئ نموذجا للتصورات عن موت الإنسان وعودته إلى الحياة »(14).

وكدليل على صحة هذا التصور أقدم هذه الأمثلة، ففي رواية "واو الصغرىّ قتل الساحر العراف بمديته القديمة فـــ« قعقع الرعد بعنف واحترق الأفق بالبروق، فالتفت الناس ليروا أن جحافل غيم قاتم قد بدأت تغزو الصحراء من جهة الشمال »(15).

ينجح الكوني، وفقا للقانون السابق، في إيهام القارىء بأن موت العراف كان السبب الرئيس لقعقعة الرعد، فتكون علة هذا الأخير هي فجيعة القبيلة في العراف، ابن السماء، وذلك بعد جفاف طويل حل بمضاربها، وقد كان هذا الوضع كافيا للاقتناع بوجود علاقة بين دائرية الزمن (موت العراف/ أمطار / جفاف، (موت ؟) /أمطار / جفاف) و موت العراف.

و يزداد الاقتناع أكثر عندما نعلم أن تفسير نبوءة العذراء كانت بعد مقتل العراف مباشرة، و كانت تعنيه عندما أشارت إليه بكلمة غراب، و بمجرد معرفة معنى النبوءة انهمرت الأمطار التي هي علامة على تحقق النبوءة كما اعتادت القبيلة أن ترى في العلامات السماوية إشارة على صحة التفسير.

و بهذا يمكن عد تراث هذه القبائل الذي تلعب فيه الأوهام الدور الأكبر، حلقة رئيسية من حلقات دائرية الزمن الذي يصبح معناه موصولا بفكرة الانتماء إلى الأسلاف، و ينبغي أن أشير إلى أن العراف كان صديقا للزعيم والأكابر الذين يمثلونهم و هم من أهل الخفاء، وهذا الأمر يؤكد على أن «وجود هذه المجتمعات خارج الزمن الواقعي، و داخل زمن أسطوري دوري مغلق لا تسمح فيه بوصول أي مؤثر خارجي يجعلها بالضرورة عائمة في الزمن الأسطوري الخالص، بحيث يمكن للقارئ أن يستخلص أن هذه القبيلة كان يمكن أن توجد بالطريقة نفسها قبل ألف عام أو بعد ألف عام دون الإحساس بارتباك أو خلل»[16]

و يتكرر المشهد نفسه في رواية " نزيف الحجر "، حيث كان يمكن أن يقتل الراعي أسوف بالطريقة نفسها منذ آلاف السنين دون إحداث خلل في تركيبة الرواية السردية، و لا في قوانين الصحراء، و الدليل هو أن قتل قابيل آدم أسوف شبيه بحادثة قتل الساحر للعراف، والجريمتان معا شبيهتان بقتل قابيل أخيه هابيل، و يكمن الاختلاف الوحيد في علة القتل، فهي بالنسبة لقابيل الكوني سببها وفاء أسوف للطبيعة التي اقتصت من جلاده و عاقبته بالجنون.

و أما بالنسبة لشخصية الساحر في رواية "واو الصغرى" فهي مطالبته بدين قديم له عند العراف، ولما رفض هذا الأخير سده استحق القصاص.

ويؤكد الدَين والنبوءة بمفهومهما الرمزي(رواية واو الصغرى) و أسوف المتحد مع الودان (رواية نزيف الحجر) على العودة المتجددة إلى الزمن الأسطوري –الذي هو أحد ملامح الزمن الدائري – بحيث يصبح هذا الزمن هو البؤرة الحقيقية المشكلة لدائرية الزمن المستدعاة من خلال الإحالة إلى أحداث تاريخية بعينها مستمرة في الحاضر، مندغمة فيه على الرغم من أن وجودها الحقيقي هو في الماضي البعيد الممتد لآلاف السنين، فالنزيف القديم

مستمر، إذن، « استمر نزيف الحجر على اللوح المحفوظ في حضن الرمل، لم يلحظ القاتل كيف اسودت السماء و حجبت السحب شمس الصحراء، قفز مسعود في السيارة، أدار المفتاح في اللحظة التي بدأت فيها قطرات كبيرة من المطر تصفح زجاج اللاندروفر، و تغسل الدم المصلوب على جدار الصخرة»[17].

و بهذه الإحالة المتكررة تكون الأحداث التاريخية هي مستوى من تلك المستويات المشكلة لدائرة الزمن عند الكوني، وتكون في الوقت نفسه الإحالة إلى تراث الأجداد (الودان / النبوءة)، من خلال تلك الحلقة التي يفردها الكوني دوما في رواياته، دليل حضور قوي على النبع الأول، على الانتماء للأم القديمة في غبطة و سعادة دائمتين، و قد عبرت عنهما شخصية أثيرة عند الكوني: « فليعلم مولاي أن كل ما نفعله، منذ انبثقنا من الخفاء، غايته العودة إلى الوراء، إلى الخفاء الذي أنجبنا، عشق النساء، التغني بالحنين، قول الأشعار، الخروج إلى الغزوات، استدعاء القرناء، لا نبغي في الحق، من هذا كله إلا تحقيق أمر واحد، نحاول أن نخفيه عن أنفسنا: الفرار من الصحراء و الوصول إلى البر الأول »[18]

لهذه الاعتقادات المترسخة في الوجدان الصحراوي فإن الزمن في الرواية الكُونية يعد شخصياته بكل شيء، بالحلم، و الفرار، و الضياع، والفشل، و القتل، و بالفجور، والمتعة، وبالمستحيل أيضا فيتزوج وان تيهاي من ابنته، و إيمري من محبوبته، والزعيم المتوفـــى بالعـــذراء، لكن الزمن لا يلبث أن ينتكس عل عقبيه، لأنه لا بد أن يعود إلى المضان الأولى، لهذا تقتل الحفيدة وان تيهاي في رواية "عشب الليل " انتقاما لجسد الأنثى، ويرحل إيمري في" فتنة الزؤان" بأمر من زوجته، التي تعلم بأنه خان مجتمع الشعر بعدما ادعى الانتماء إليه. و أما زعيم "واو الصغرى" فيبقى حيا في النفوس

على الرغم من موته... فهل معنى ذلك أن شخصيات الكوني تعيش مأساوية الزمن الدائري؟ وهل أن حضور هذا الزمن بهذه القوة هو حضور و تجسيد لأزمة الزمن بمعناه الحديث حيث نهاية الشخصية التراجيدية؟ و هل حقا أن تلك الشخصيات تعيش ما يسمى بفقدان الشعور بالماضي؟ فهل هي لعنة الجغرافية، عندما يصبح لها لسان تتكلم به؟ أم هي لعنة الجسد الصحراوي المتحول إلى طقس تضحوي شبيه بطقوس القرابين الوثنية؟ أم هي لعنة الجد مندام الذي أكل اللقمة الحرام، فضيع نفسه والصحراويين من بعده؟.

تحمل دلالات الزمن الدائري مقاربات لهذه الأسئلة ذات الطابع الوجودي، و أولها أن هذا المجتمع الذي نحن بصدد التقرب منه يعيش ملحمة كَونية بكافة تفاصيلها، بظاهرها و باطنها، حاضرها و غائبها، معقولها و لا معقولها، فـ« لا يوجد فرق بين الفعلي و الرمزي في الصحراء، و هذا التداخل بين الثنائيات المتقابلة يلغي الزمن بمعناه الحديث، و يحوله إلى زمن قابل للتحديد والوصف إلى قوة مجهولة حاضرة دائما، الزمن دائرة تغلف الحياة نفسها، و بالنتيجة يجعل هذا التكرار المتواصل و البدء الأبدي من الحياة البدوية حياة بلا زمن، لأن أي زمن هو نقطة بدء جديدة لزمن سابق»[19].

و هذا المعنى لا يلغي بدوره فكرة التواصلية أو الاستمرارية لأن الكوني يعيشها بعودته المستمرة إلى ماضي أجداده، هذه العودة التي نفسرها بإعادة النظر في قيم هذا المجتمع الغارق بدوره في قيم الأبدية، و الروائي يبعث و يجدد الأمل فينا من خلال هذه " العودة المتكررة إلى الحدث الواحد " الذي يلتقط فيه قضية الصراع الحضاري الذي يظهر في شكل نزاعات بين القبائل و الطرق الصوفية تارة و بين العوالم الإنسية و اللاإنسية تارة أخرى.

و قد انعكست هذه الصراعات على البناء الزمني للرواية الكُونية، حيث حاول الروائي تجريب هذا الشكل الذي نتجت عنه رؤية زمانية خالصة تحمل « وجهات نظر مختلفة تمثل المنظور الزماني للجماعة في وعيها المكثف باللحظات الفارقة في تاريخ القبيلة من ناحية، فيما نلفي الحدث نفسه من منظور شخصـــية أو أكثر من الشخصيات المشاركة في الفعل القصصي بصياغة مغايرة من موقع زمني آخر »[20].

و أما عن المقاربة الثانية للأسئلة السابقة فهي شديدة الصلة بالمقاربة الأولى، وهي تظهر في شكل استرجاعات هي دليل حضور قوي على دائرية الزمن. و قد نتج عن استخدام هذه التقنية استخدام أفعال ماضية كثيرة جدا، حملت، هي الأخرى، جدلا عنيفا بين الماضي و الحاضر الذي يبدو حضوره باهتا و خافتا، و تظهر الاستباقات –القطب المعاكس للاسترجاعات– بدورها هذا الخلل المنعكس على البنية السردية للروايات، غير أن الزمن الدائري الذي يستخدم كرؤية و تقنية في الوقت نفسه يتفوق على المفارقة التي يحققها الزمن السردي (الاسترجاع و الاستباق) و يصبح قوة ضاغطة تنفتح مرة وتنغلق مرات، و «هذه الحركة لا شك أنها تتسم بالنكوص حول نفسها ومن ثم تسم الزمن بالدائرية »[21].

و لعل في عدم اهتمام إبراهيم الكوني بتحديد أزمنة رواياته، يرجح هيمنة فكرة دائرية الزمن، التي نحرص على القول بأنها تحاول إلغاء مفهوم البطل الملحمي، لأن تكرارية الزمن و الحدث معا تشدد على القول بأن شخصيات الكوني الغارقة في تراث الأسلاف تؤدي أدوارا مهيأة له مسبقا ما دامت الفكرة تقوم على نقطة بدء جديدة على زمن سابق حسب تعبير سعيد الغانمي، و سيستمر هذا الدور ما دام مجتمع القص البدوي معنيا بالبحث عن "واو"

الجنة المفقودة، وهذا الأمر يتنافى مع مفهوم الرواية الملحمية اللصيقة بالتناقضات التي أفرزتها المدنية.

و في الحقيقة واجهتني، في قراءاتي الأولى للكوني عدة أسئلة، أهمها متعلق بحقيقة أبطاله و طبيعتهم، و كنت حينها أبحث عن بطل جاهز بمواصفات معينة يكون على شاكلة مصطفى سعيد أو متعب الهذال أو وديع عساف... حتى أرفعه إلى مصاف هؤلاء الأبطال، لكن شخصيات الكوني أربكتني، وجعلتني أترجل حافية بحثا عن مواصفات أبطاله فماذا وجدت؟، وجدت ودانا ينقذ إنسانا فيكتسب صفة البطل، و أبلقا يفضله صاحبه على زوجه، و أوتار إمزاد ترفع الحاضرين إلى موطن الرؤى السماوية، وقصيدة تشبه طلاسم السحر، تحول المشلول إلى محبوب و المحبوب إلى مشلول، وترفاسا يبعث بآكله إلى الجحيم لأنه بالغ في أخذه فأناله العقاب ... وإذا بالرواية الكُونية تختلف بناء لتتماثل على المستوى الدلالي الذي قد تضيق به استدارة الزمن أحيانا، كما قد تتسع به أحيانا أخرى، لهذا السبب يفضل الكوني« اعتماد الديمومة الزمنية و الاستدارة واستعادة الأصل المنفتح و سردية المعنى و الحال و التخييل والتجريد و الإيحاء على نسبية الزمن و خطية التتابع و السيرورة و سردية المكان بأشيائه وتفاصيله والتذكر و المطابقة "[22].

و كتابه كهذه تضع نفسها خارج التنميط الذي ساد الرواية العربية، و تعطي لنفسها الدليل على أن القضية عند الكوني ليست مجرد لعبة سردية و إن أتقنها بامتياز، بل هي أركيولوجيا الكتابة الباحثة عن التاريخ و الذاكرة و اللحظة الراهنة، وهذا سيسقط بدوره مفهوم الحتمية التاريخية التي تعني أن كل شي لا بد أن يتقدم إلى الأمام، بالضرورة، لان الحضارة اليوم تتراجع و لا بد للرواية أن تتراجع هي الأخرى، و لكن نحو بحث عن شكل جديد

يتناسب و منحى الكتابة عند الكوني الذي لم يجد بأسا من تحويل عقارب الساعة، فجعلها تنحرف عن اتجاهها و تأخذ الاتجاه المغاير تماما، ولم يؤثر هذا الوضع على منحى كتابة تنتمي زمنيا إلى فوضى حضارية يعيشها العالم بأسره وهذا لأن« جميع الاتجاهات تتماثل تقريبا في الفضاء اللامحدود»[23].

لقد بدا للكثيرين من قراء الكوني أنه معني بكتابة المغامرة أو ما يسمى بالكتابة السحرية لكنني أرى أن اختيار الكوني الصحراء كموضوع رئيسي في كتاباته ينم عن توجه و عقيدة و تشبث منه بتراث أجداده الطوارق، تشبث بالحياة الأولى، و بالطفولة الإنسانية حيث تبرز رحلة الإنسان الأولى مع العالم الذي يحيط بها، رحلة توصف بالبراءة حيث ان الكل منشغل فيها بلقمة العيش و مجابهة الخطر بالوسائل البدائية كأن تكون رقصة، أو أغنية، أو تعويذة، أو طلسما، و انعكس هذا الفضاء السحري والعجيب على فهم الكوني للزمن و إدراكه له إدراك المتبصر والعارف بحقيقة الكون ذاته يقول: « فـــي أوان الطفولة الذي نستشعر فيه الأيام أعواما، يتجلى إغواء الزمان، وفي أوان الشيخوخـــة الذي نستشعر فيه الأعوام أيامـــا، يتجلى خبث الزمـــان »[24].

و إزاء هذه الحقيقة المرعبة تتوجه لغة الزمان و منطقه و أنطولوجيته نحو التخلي عن مادية العالم المعاصر، لأن التخلي بالفقد أهون من الهزيمة نفسها، واقتصاص الصحراء من أبنائها أهون من اقتصاص الإنسان من أخيه الإنسان، لذا فالصحراء تضيق و تتسع و العاقبة لمن تخول له نفسه معاداتها أو يحاول أن يستولي عليها، و الصحراء بهذا المعنى هي الوجود، هي فردوس العالم أو روحه، و العالم بغيابها صحراء، إنها معادلة صغيرة ولكنها ذات دلالة كبيرة جدا، هذه الجدلية بين الظاهر و ما وراء الظاهرة هي سر إبداع الكوني، و هي التي جعلت بداهة الزمن الدائري يوصف بأنه المعبر

الحقيقي لهذه الروح التي تدخل في صراع مع البدن(يتجلى هذا الصراع في رواية ملكوت طفلة الرب سيرة أنا الكوني)، وهذا هو جوهر القضية جوهر الصراع الذي يتخذ من كل مظهر من مظاهر الصحراء مأوى له كأن يكون زهر الرتم مثلا« و لكن الرعاة يقولون أن للزهو سرا آخر، يقولون إن الزهور تأسرنا لأنها تعيدنا إلى الماضي، إلى الزمان الميت، ولا تنفينا في وقت مجهول، آت، كما تفعل كل الكائنات التي تستبد بنا، و لكنها تبتسم لنا وتمن علينا بعطرها، و تغوينا لكي تعيش، لكي تستمتع بالوقت الوحيد الذي نملكه، بالومضة، بالغمضة الخاطفة، خاطفة و لكنها حقيقية لأنها حاضرة، ولأنها الحياة التي عجزنا في نيلها، يضيف الرعاة فيؤكدون أن هذا سر ولع الصحراوي بالزهور، كل الزهور، أما الحنين، أما الوجع الذي يثيره زهر الرتم في صدور العشاق فهو مثله مثل الغناء مثل عبير الترفاس من طبيعة أخرى، لأنه مستعار من تراب أرض أخرى، من تراب ذلك الوطن المفقود الذي قدر للصحراويين ألا يدخلوه ما لم ينتحلوا أجراما أخرى ليس لها طبيعة الأبدان أجراما لا تتسلط عليها الذاكرة و ليست عاجزة عن الالتئام بدنيا الخفاء »[25].

إذن، تتجلى حقيقة الزمان الدائري في حقيقة الصحراء نفسها، في بشرها و نباتاتها و أزهارها و حيواناتها، و في كل شيء تدب فيه الروح لأن الحياة فيها تحتكم بصفة عامة إلى قانون الاستدارة التي تعبر عنه ثنائية الحياة والموت التي تختزل التقسيم العادي للزمن (ماض، حاضر، مستقبل)، و في الوقت نفسه تخلص هذه الكائنات من ربقته، و بسبب هذه الازدواجية يبدو الزمن الدائري مرة في صورة المعتدي السالب لكل المظاهر الجميلة في الحياة، و في صورة المانح لها مرات أخرى. يقول الكوني: « زمان الصحراء، أيضا زمان موقوف، زمان معطل، زمان جامد، زمان موجود،

زمان حاضر، زمان خالد لأنه استطاع أن يأسر أركان الزمان الثلاثة (الماضي، الحاضر، المستقبل) و حشرهم في معقل واحد. هذه الأعجوبة التي أبدعتها الصحراء هي سر افتتان الخلق بالصحراء، هذه الأعجوبة جعلت من البعد الميتافيزيقي للزمان بعدا وجوديا، بعدا حقيقيا، لأول مرة في تاريخ التساؤل عن ماهية الزمان، فاستطاع الإنسان، بهذا الإنجاز، أن يسترجع هويته الضائعة،: الحرية »[26] فمنذ فترة مبكرة جدا من التاريخ الإنساني، أدركت الشعوب والحضارات القديمة حقيقة الزمن فراحت تصوره بمختلف مظاهره التي مكنتها من قياسه، و بالتالي إدراك ماهيته الإنسانية، (الزمن خاضع للفعل الإنساني).

والحقيقة أن الطوارق، كما يصورهم الكوني، لم يختلفوا عن هذه الشعوب في عد الزمن مسألة إنسانية بالدرجة الأولى، ومعناه لا وجود للإنسان دون الزمن، ولا وجود للزمن دون الإنسان، فوجود أحدهما مرتهن بوجود الآخر، لذا راح الكوني يستعيد هذه الحقيقة ليجعل منها قانونا للعبة سردية تجمع بين المتناقضات، فمن جهة هناك الزمن الدائري والزمن الخطي و الزمن الأسطوري، و من جهة أخرى هناك الزمن الداخلي والزمن الخارجي، ذلك أنه لولا الزمن الأسطوري، مثلا لما وجد الزمن التاريخي أو الزمن الخارجي، لأن الزمن بمعناه الداخلي والخارجي هو « روح الوجود الحقة ونسيجها الداخلـــي، فهو ماثل فينا بحركة لامرئية حين يكون ماضيـــا أو حاضرا أو مستقبلا، فهذه أزمنة يعيشها الإنسان وتشكـــــل وجوده. بالإضافة إلى أن الزمن الخارجي أزلي لا نهائي يعمل عمله في الكون والمخلوقات ويمارس فعله على من حوله »[27].

لكن هذا الفهم الحصيف للزمن لا يكتمل عند الكوني لذا شيد فـــي صحرائه المجازية ما يثبت البعد الميتافيزيقي للزمان الدوري – الذي يلـــف

ويطوق كل أنواع الزمن المذكورة–، وقد وجده في حقيقة أخرى مروعة، وجد بعد الزمان المفقود في المكان، فلا يمكن للكوني أن يتصور أحدهما بمعزل عن الآخر، فهما متصلان، مندغمان، متشابكان، متداخلان، ويقدم كاتبنا كعادته حكاية تروي قصة هذا الالتحام الأبدي، ففي "واو الصغرى" يبني عاشق حجارة الصحراء دارا للقرابين، قبابها و أبوابها و جدرانها و كل شيء يظهر فيها يأخذ شكلا دائريا: « بدا العاشق، أخيرا في تشييد البنيان، شذب الصخور و سوى ألواح الصلد، و تحولت الحجارة بين يديه قطعا من عجين فكان أهل النجع يرمقونه بإعجاب و هم يرونه ينهمك في صنع الأحجار بلهفة عاشق حقيقي، و تحول الإعجاب إلى دهشة عندما أبصروا قيام أبنية متداخلة ثلاث قباب دائرية جليلة، شيد فوق الضريح بيتا مستديرا، ذا قبة مستديرة، وابتنى بالجوار بيت العذراء، وجعل بينهما بابا مقوسا، دائريا أيضا ... باب نقوس، مستدير و جدران مستديرة و شعفة مستديرة في الأعلى لم يكن البنيان أعجوبة لأن سلالة العابرين اعتادت أن تتجنب الأبنية و لم تعرف في سبيلها إلا قبور العابرين، وأضرحة الأولين و لكن الحكماء أكدوا أنهم لم يروا للبنيان مثيلا حتى في أكثر الواحات، رفاهة و ترفا، فغاب عن العقلاء أنفسهم، الشبه الخفي الذي استعاره جرم البنيان من أضرحة أسلافهم و قبور أجدادهم و هو جرم أرجعه القوم إلى افتتان عاشق الحجارة بالجسم الدائري و إيمانه الغريب باستدارة كل جسم خفي »[28].

تظهر مجموعة من السمات الأسطورية لهذا المزار الدائري الذي يأخذ اسم دار القرابين، و يمكن النظر إليه من مستويين: شكلي ومعنوي.

و أما عن المستوى الشكلي فتمثله الطريقة الدائرية التـــي بنـــي بهـــا المزار، وهي تستند إلى فلسفة عميقة جدا ترى في الاستدارة أصلا لكل شيء بما فيها البناء الذي يمثله المزار.

تمنح إذن الصفة الدائرية للمزار خواصا أســـطورية مســـتوحاة مـــن اعتقاد الباني باستدارة الكون بكل مكوناته، و قد تمكن من إقناع أهل القبيلـــة بصحة اعتقاده عندما أوصله بأهل الخفاء اللذين لهم سلطة قوية جـــدا علـــى عقولهم وأفئدتهم .

وأما عن المستوى المعنوي فهو الآخـــر مـــنح لـــدار القـــرابين ســـمات أسطورية، قربتها من دور العبادة من خلال طقوس تضحوية كانـــت القبيلـــة تمارسها عند ضريح الزعيم الذي كان يرسل النبوءات على لســـان العـــذراء التي زفت له في موكب مهيب .

و قد كانت القبيلة تذبح عنزة سوداء فور تلقيها النبوءة، و هو الأمـــر الذي يضعني أمام عبادة وثنية لوجود قرابين و أضاحي حيوانيـــة تطـــورت بمرور الأحداث و أصبحت أضاحي إنسانية (موت العراف و موت الحفـــار واختفاء عاشق الاستدارة)، و هذه الإشارة الدينية منحت للمكان الذي تتواجـــد فيه جثة الزعيم صفة القداسة، كما منحته تأشـــيرة للتواصـــل مـــع الســـلطة المركزية الممثلة هنا بأهل الخفاء الذين منحوا بدورهم إمكانيـــة أو فرصـــة تمثيل واحة "واو" القديمة، أي أن المكان يصبح هنا حاملا لسمات الفضـــاء الأسطوري الغائب الذي يعمل الروائي على التأسيس له على مراحل شـــكلت حلقات متواصلة، تغير على إثرها نمط عيش قبيلة "واو" من حياة اللااستقرار إلى الاستقرار حول موارد الماء بالقرب من ضريح الـــزعيم الـــذي حـــول المضـــارب إلى واحة منحها أهلها اسم "واو" الصغرى تيمـــــنا و تبركـــــا بـــ "واو الكبرى"، الجنة القديمة، قال لهم أماما: « سموا الواحـــة تان أمغار،

ما أنبل هذا الاسم، ما أبهى هذا الاسم، ردده طويلا و ترنح طويلا، و تغنى بالأنين طويلا، لم يخف الأكابر بهجتهم بالاسم و لكنه اسم بقي على شفاههم وحدهم لأن تجار القوافل، و ملل العابرين كانوا قد نقلوا اسم واو الصغرى إلى أبعد الأوطان منذ زمن بعيد »[29].

يكتسي هذا الشاهد أهمية بالغة من حيث إن عنوان الرواية فيه حقق مهمة إنجاز الفضاء المفقود بالاعتماد على قانون النقائض، فـ"واو" المحلوم والموعود بها تبقى مركزا بإضافة صفة الكبرى التي تكشف عنها صفة الصغرى، والتي تكون بالتالي نسخة مصغرة عنها، أقل منها مكانة وشأوا، فقد رجع الراوي إلى مدلولات "واو" السابقة، عندما عبر عن انتكاسة الحلم الصحراوي القديم الذي تحولت فيه – بغياب واو– الحياة إلى خواء على الرغم من الرخاء الذي ساد الواحة الجديدة، يقول الراوي واصفا ومخبرا:« وكثيرا ما يتخاطب التجار الأقدم عهدا بالأسفار متعجبين: مررنا بهذه البقعة مرارا وعرفنا فيها خلاء قاسيا مميتا، فهل نجرؤ بعد هذا على القول بأن السماء كفت عن الجود بالمعجزات؟ ألا يعني أن الخفاء إذا نظر بعين الرضا إلى سلالة جعل لها من لا شيء سببا للرخاء »[30].

ثم يعبر الراوي في خطابات واصفة عن سخطه على مجتمع الواحة يقول: « سكن ديار الواحة صناع وتجار وغانيات وصعاليك (...) بدءوا يجذبون بعضهم مع الزمن على عادة الأغراب ويلتئمون في عصابات ومجاميع ما لبثت أن استفزت بمسلكها وطباعها السكان الأصليين، فوقعت منازعات وتولد فتن واشتعل فتيل الخلاف »[31].

و انعكس الوجه الجديد للواحة المستنسخة على نفوس الخلق الذين لم تتلاءم طباعهم مع الاستقرار فهل هو الشوق إلى السفر، ألا يصاب الخلق بالنحول عندما يبتعدون عن الأوطان؟، ألم يصب أماما سليل الخفاء بالنحول

أيضا؟، يقول الراوي: « وفي السنوات الأخيرة عندما ركنـــت القبيلـــة إلـــى الأرض وارتضت النوم تحت الجدران واستطاع القوم أن يلحظوا التبدل فـــي أجسامهم وفي نفوسهم رأوا أن معمرهم المبجل قد سبقهم في تحـــولهم وبـــدأ ينهار لأول مرة في عراكه البطولي مع الزمان، ازداد نحولا وتيبست جلدتـــه على العظم، واشتد في أطرافه الهزال وبدأ يتلاشى ويتبدد، ولـــم يبـــق مـــن جسمه إلا لفافة اللثـــام والثوب الفضفاض»[32] .

إنها، إذن، ملحمة متكاملة للزمان الدائري، بنياتها منسجمة ولغتها ضاربة في القدم، و قصتها راسخة في كل العقول، تلك، إذن، كانت المطالب الشرعية في كتابة "إبراهيم الكوني" كونها أرادت أن تكون تعبيرا صادقا عن التاريخ الذهني و النفسي و الاجتماعي و الأسطوري لقبائل الطوارق النبيلة.

الهوامـــش:

1- الفيـــروز بـــادي: القاموس المحيط (ز م ن)، ضبط و توثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).

2- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط (ز م ن) ج1، المكتبة الإسلامية للطباعة و النشر و التوزيع، استانبول، تركيا،(دط)، (دت).

3- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة باب الزاي و الميم، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420، 1999.

4- الزخشري: أساس البلاغة (ز م ن) تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، لبنان (دط)، (دت).

5- مها حسن القصراوي: الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص13/.14

6- عبد اللطيف الصديقي: الزمان أبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية الدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1996/1415، ص.19

7- المرجع نفسه: ص.21

8- المرجع نفسه: ص10.

9- المرجع نفسه: ص.26

10- أحمد طالب: مفهوم الزمان و دلالته في الفلسفة و الأدب بين النظرية والتطبيق، دار الغرب للنشر و التوزيع، (دط)، 2004، ص09.

11- اعتدال عثمان، قراءة استطلاعية في أعمال الكوني، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، المجلد السادس عشر، العدد الرابع، ربيع 1998، ص.288

12- إبراهيم الكوني: فتنة الزؤان، الرواية الأولى من ثنائية خضراء الدمن، المؤسسة العربية للدراســـات و النشر، بيـــروت، لبنـــان، ط1، 1995.، ص183. ص .183

13 - إبراهيم الكوني: نزيف الحجر، دار التنوير للطباعة و النشر، ط3، 1992، ص.7

14- والاس مارتن: نظريات السرد الحديثة، ترجمة حياة جاسم محمد، المجلس الأعلـــى للثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، دط، 1998، ص.113

15- إبراهيم الكوني، واو الصغرى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط2، 1999، ص.177.
16- سعيد الغانمي: ملحمة الجدود القصوى، (المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني) المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص.56.
17- إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، ص.147.
18- إبراهيم الكوني، عشب الليل، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص.64.
19- سعيد الغانمي: ملحمة الحدود القصوى (المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني)، ص.162.
20- اعتدال عثمان: قراءة استطلاعية في أعمال الكوني، ص.239.
21- سعيد سليمان – توظيف التراث في روايات نجيب محفوظ- ص 260.
22- مصطفى الكيلاني: زمن الرواية العربية، كتابة التجريب، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، دط، 2003، .194.
23- المرجع نفسه: ص.197.
24- إبراهيم الكوني: نصوص الخلق، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص.158.
25- إبراهيم الكوني: فتنة الزؤان، ص.86.
26- إبراهيم الكوني: في طلب الناموس المفقود، نصوص، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص218.
27- مها حسن القصراوي: الزمن في الرواية العربية، ص13/.14.
28- إبراهيم الكوني: واو الصغرى، ص11/.112.
29- المصدر نفسه: ص250.
30- المصدر نفسه: ص242.
31- المصدر نفسه: ص243.
32- المصدر نفسه: ص248.